الغناء والموسيقى
وحالهما فى مصر والغرب
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ٤ —

ثلاث الكلمات التى تقدم إيرادها هى بيان وجيز للملاحظات على الغناء والموسيقى فى مصر والغرب ، يلاحظها كثيرون منا ، ولم يُقصد بعرضها جملةً سوى لفت النظر إلى ضرورة الأخذ فى إصلاح جدّى يقوّم من أود هذين الفنين وما يتعلق بهما عندنا . فإن استصوبها فنان محب لفنه ، وأحس بقدرة على شىء من هذا الإصلاح وتهيأ له ، فتوخاه ومهد سبيله ، كان له فضل الابتداء والسبق فى خدمة جليلة

والذى يجمل بذوى الهمة من الفنانين هو قبل كل شىء ، أن يحاولوا رفع ذلك الحجب المريض من حضيض ذله الذليل ، وأن يطيروه بأشعة البشاشة وروح المشاشة لعلهم يزيلون عن قلبه تسعة وتسعين فى المئة — على الأقل — من هذا الحزن الذى ران عليه ، وينقذونه من طوفان دمعه السخين ؛ والجمال ، بعد هذا الإسعاف ، واسع شاسع الأطراف : أفليس أمامهم حب الأحياء ، سعيدُه وشقيه ؟ وسائر الأحاسيس والخوالج كنز لا ينفى . لهم أن يختاروا منه ما يسهل وصفه : كألوان العواطف الوطنية والعائلية ، وكالحماسة والفرح وغيرهما ؛ وفى الطبيعة جمال مشرق باسم يمرح الشباب أمامه فى أحضانها ويلاعب ويداعب ، ويتهكم ويغاضب ، ويجالس ويؤانس ، ويتراقص ويتعاشق ، ويضنى ويطرب فى هناء وابتهاج . كل ذلك قد لا يتعذر على الفنان الحى تصويره بمنظوم شعره ومنثوره ، أو بألحانه ، أو غنائه ، أو موسيقاه ، إن هو اعتمد على بصيرته وبصره ، واستهدى شعوره ، وراد آفاق نفسه ، وطاوع وحى قلبه محترساً من تقليد سواه[1]

وإذا حل أن يُعبر للعامة عن أمثال هذه الموضوعات بالعامية فهل يحرم أن يُعبر عنها بالفصحى للصفوة المثقفة ، وبالفصيحة السهلة الواضحة للخاصة المتعلة على أن يكون الاتجاه بها إلى التعميم؟

والمأمول أن ترجح فى الغناء كفة ما كان من النثر والنظم شعراً ما دام مجرد استعمال الكلمات التى ألفها الشعراء : كالقمر والزهر والفؤاد والوداد والنيل والنخيل ، لا يردّ غثّ الكلام وسفسافه شعراً . وإن بين الناثرين والناظمين شعراء بصراء ، تُشعر أغانيهم بقدرة تمكّنهم من الإتيان بأغان تشعُرها ، لولا استقرار العادة على مراعاة التقاليد التى سلطها الجهل وضعف الطبع ، ولولا طلبات الملحنين والمغنين الخاضعين لأذواق الجمهور الفسيدة

أما الملحن ، فالنصيحة الخالصة له أن يوطّد العزم على نبذ العادة القديمة ومقاومة التقاليد السقيمة ؛ وأن يتحاشى عن نية تقليد الشرق والغرب على حدّ سوّى ، ولا سيما التقليد الأعمى من اقتباس عبارة صوتية معينة — مثلاً — يعجبه أسلوبها فيُقحمها فى لحنه غافلاً عن مدلولها[2] ، أو من مد مخصوص ، أو من تعمد التحزين الخارج عن الفن ، وما إلى هذه الأمثلة .

فإن كان صادق العزم ، فسبيله أن يطبّ نفسه أولاً من الذلة والخور والخنوع ، ويشفيها من داء الحزن العضال ، ومن التفجع المقيت والعويل الثقيل ؛ وأن يحررها من بدعة التخنث والتكسر

---

(١) جاء فى المخصص : « ينبغى أن توضع الألحان فيما شاكلها من الأشعار : فمنها ما يلى ويرقق ، وهو لما كان من الشعر فى النزل ، والتشوق إلى الوطن ، والبكاء على الشباب ، والرثاء والزهد ؛ ومنها ما يطرب ، وهو لما كان فى نعت الشراب ، وذكر الندماء والمجالس ، والصبوح والمساكر ؛ ومنها ما يشوق وترتاح له النفس ، مثل صفة الأشجار والزهر ، والمتنزهات والصيد ؛ ومنها ما يسر ويفرح ويحث على الكرم ، وهو لما كان فى المديح ، والفخر ، وصفة الملك ؛ ومنها ما يشجع ، وهو لما كان فى الحرب ، وذكر الوقائع والغارات والأسرى ، وغير ذلك ؛ وهذا كله يدعى غناء » . ج ١٣ ، ص ١٠ ، طبعة بولاق سنة ١٣٢٠ هـ .

نقلنا هذه الفقرة لبيان أن الشق لم يكن فى العربية ، عند المتقدمين ، إلا واحداً من شتى الموضوعات التى تناولها غناؤهم ؛ وكان لكل موضوع عندهم ما يلائمه من الألحان ، كما ترى ؛ وبديهى أنه ليس حتماً أن يكون كل التزل والتشوق إلى الوطن حزينا وأن يغنى بلحن يبكى .

(٢) فى المخصص أيضاً : للألحان لصوص يسرقون النغم كلصوص الشعر . فمن الشعراء المنتضح ، كالسارق للقصيدة والبيت كله ؛ ومنهم دون ذلك ، كالسارق للكلمتين والثلاث ، والسارق للمعنى يكسوه كلاما آخر . وكذلك المغنون : فمنهم السارق المنتضح الذى يسرق اللحن كما هو وينقله إلى شعر آخر ، كفعل الطنبوريين فى زماننا هذا وغيرهم من مقاربى أصحاب العيدان ؛ ومنهم من يسرق بعض اللحن بصفة له ، أو صيحة منه ، أو ردة ، أو نشيد ؛ ومنهم من تخفى سرقته ، مثل من يسرق تأليف لحن فى الثقيل الأول ، وينقله إلى إيقاع آخر إما ثانى ثقيل أو رمل أو هزج ؛ ومنهم من يجىء إلى ثلاثة أصوات أو أربعة فى الثقيل الأول على أصبع واحدة فيسرق جزءا من هذا ، أو صيحة من هذا وردة من هذا ، فيصوغ صوتا من أصوات » . ج ١٣ ص ١١

والتميّع ، ليخلص أولاً من كل هذه العلل الوبيلة التي مكنّها منه استحسان العامة وأشباه العامة . ومما يعينه على النجاة النزهة الخلوية ، والرياضة البدنية ، والمطالعات المنعشة ، والمصاحب المؤنس المفرح ، وإجالة الخاطر في الموضوعات الملائمة للغرض ، والإيحاء التلقائي .

والأجدى له في عمله هو أن يمعن في التفكير بادىء بدء في نحوى ما هو مقبل على تلحينه من الكلام ، وأن ينظر ملياً في جمله وكلماته وحروفه ، ليتبين الروح الذي أملاه ، والموقف الذي يصف ؛ ثم يتصور أنه هو في هذا الموقف ، وأن ذلك الكلام كلامه ؛ فإذا أرهف حسه ، وأيقظ ملكاته ، وهيأ نفسه وشعر بإبحائها وارتياجها إلى التلحين ، أخذ في الترنم بالأغنية ؛ ثم يكرر التغني حتى يجيء مدلول اللحن مطابقاً لمدلول الكلام المعبّر عن الحال النفسية التي استعارها لنفسه هو من الموقف الموصوف بالأغنية ؛ ثم يترك اللحن الذي وضعه أول وضع ، ويرجع إليه مرة بعد مرة لتهذيبه وإحكامه على مقياس تلك المطابقة ، لا ابتغاء جعله مشابهاً للحن آخر ، أو مرضياً لذوق خاص ؛ فيدع الصوت يعبّر التعبير الطبيعي ، ويطابق مقتضى المقام المدلول عليه بالكلام بما أنه قد تمهد اعتقاد وجوده هو في هذا المقام ، واعتقاد هذا الاعتقاد حتى استقر ما يفكره ونفسه في عقله الباطن (٤)

وأما المغني ، فسبيله أن يعمل في التدرب على غناء اللحن ما عمل صاحبه في إنشائه ، بعد أن ينفي عن نفسه ما استطاع من ذلك الحزن المميت وتلك الذلة الساحقة ، سواء أكانت تقليدية أم طبيعية ؛ ولا بد له من أمور منها :

أن يقضي مدة قبل مزاولة الغناء في تقوية صدره وتعميق نفسه ومدّه ، وإلانة حباله الصوتية ، والتمرّن على التنفس في الغناء ، حتى لا يقطع بقصر نفسه عبارة صوتية من لحن يغنيه ، وحتى لا يظهر أنه يختمها ونفسه وشيك الانقطاع ، لأن هذا يخدش أسلوب العبارة . ومن مقتضيات الإجادة أن يؤديها أحسن أداء ، ويختمها قادراً بما في نفسه من بقية وافرة ؛ وذلك كله وأمثاله طرائق وتمرينات معروفة

وأن يهجر الغناء إذا كان من ذوي الخنخنة ، ولا يغنّي مزكوماً أو متخوماً ، أو مخموراً

وأن يحرص في غنائه على نقاء صوته وصفائه ، فلا يسرقل جريانه بمثل قلبه الياء من حرف النداء همزة لينطق آ يدل يا ، أو بما يشبه مأمأة ، ونارة عواء ، أو ما يشبه عند الوقف شهقة الحمال حين يلقى حمله ، أو ما يماثل توجع المريض والجريح في تصويره ألم العاشق

وألا يقطّع صوته بالوقف إلا بالقدر الضروري لإحداث مزيّة ، كتنبيه المستمع إلى معنى الكلمة التي يقع الوقف على آخرها

وألا يطيل غناءه مستعيناً بغناء الجوقة معه ولا يكرر ذلك كثيراً ، وإذا غنّى معها فلا بد له من إظهار صوته على أصواتهم وأصوات معازفهم ، لأن الناس إنما يريدون سماع صوته هو ، وهذا غير الجوقة الغنائية (٥) ؛ لكن لا ينبغي له أن يعلو بصوته إلى طبقة لا يبلغها بغير عناء ، لأن أقله يعكّر صفاء صوته ويزيل رواءه ويعيب غناءه وإن أطرب في الطبقة التي يقدر عليها . من أجل ذلك يجب عليه أن يتخيّر من الألحان والأغاني ما يلائم طبعه ، وقوة صوته ، ونوعه

إن المتقدمين من أهل المدنية العربية ميزوا أصوات المغنين فقالوا مثلاً : أجشّ ومُجَلْجِل وكرواني ؛ والغربيون يميزونها فيقولون مثلاً : باس وتينور وكونترالتو وسوبرانو ؛ فلا يغني كل صوت إلا ما يلائمه من الألحان ؛ وظننا أنه قد آن لنا أن نبدأ هذا التميز مثل أصحاب الفن الصحيح

يحسن بمن يزاول فن الإطراب أن يعتبر بهذه الملاحظات ويتحرز من الخطأ الفني ويتحاشى العيوب المشار إليها في هذه الكليات وعن أمثالها ، كعدم إخراج الحروف من مخارجها بالدقة ، وعدم لفظ الكلمة واضحة . ومن الأصوات المسموعة في مصر ما يطرب ويمكن الافتتان فيه ، وبين الملحنين والمازفين مهرة ليس يستحيل عليهم التفوق على أنفسهم ، وإنما المعول كل المعول على فهم حقيقة الفن ومقاصده ، بدل القناعة بوسائله

ولسنا نقول إن المسلك الذي ننصح بسلوكه يغلب الوراثة وأثر البيئة واستقرار العادة ، فيغيّر الحال في الساعة ، لكنه مهما كان شأنه فهو مؤثر ، وعامل من عوامل التطور ؛ أو هو كالدواء الذي يوصف لذي علة لا يرء منها ، فقد لا يخلو من نفع للمعلول إذ الطبائع متفاوتة والشذوذ قد يوجد في بعضها ،

(٣) Autosuggestion
(٤) Le conscient dans l'inconscient
(٥) Chœur

ولأسرار الطبيعة مفاجآت ، ومحاولة الاهتداء خير من الاسترسال فى الضلال ، وكل ما يبلغ غاية ، له بداية

هذا وإن للقدمة الموسيقية تليها التقاسيم بالمعازف ، فالليالى فالموال فالأدوار ، نظام لا بأس به ؛ على أن تقديمه والتزامه فى كل حفلة لا يوجبهما الفن كما يتوهمون ، بل إن تحسينه واجب . ولم لا تقام حفلات كبيرة مخصوصة بالموسيقى وحدها وهى مطربة إذا جادت ، وفى البلاد ألوف المعازفين والمحبين لها ؟ وفى الغرب قاعات مخصوصات بها مشهورات تكتظ من المستمعين.

ولم يصغرون شأن البشرف والتوشيح فى حفلاتهم فلا يغنون هذا كله ولا يعزفون ذاك بأجمعه ؟ ولم لا يحاول أحد منهم أن ينشىء شيئاً يماثلهما ، أو يبتكر أنواعاً أخر إن استطاع ؟

إن موسيقانا لم تدرك شأو غيرها إذ عجزت حتى الآن عن التصوير (Harmoni) ، وليس يعقل أن التصوير مستحيل فى الموسيقى الشرقية ؛ لأن الموسيقى الغربية مثلها ، لها سلّم ومقامات ونغمات ، ولها الأقيسة الزمنية والإيقاع ، ولها الأساليب الصوتية تعبّر بها عن الأحاسيس تعبير الأساليب البيانية ؛ والأحاسيس جميعاً موطنها النفس ، وشأن النفس واحد فى الإنسان أينما كان ؛ والموسيقيان كاللغتين العربية والفرنسية ، مثلاً ، اللتين فيهما المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمحسّنات البديعية ، وأوجه البلاغة ، لوحدة المصادر البشرية من الفكر والمخيّلة والمشاعر ، بل بينهما أوجه شبه فى النحو والصرف[٦] ؛ وقد كانت موسيقى الغربيين ومعازفهم بسيطة ، كموسيقانا ومعازفنا ، فتناولوها بالتحسين حتى ارتقيا إلى مرتبة التصوير الذى تفوقا به منذ عرفوا تركيب الأنغام فى زمن معاً ، أى فى إيقاع واحد[٧] ، وإخراج الصوت الآلى من طبقته الضعيفة ، أو من الجزء الضعيف فى زمنه[٨] ، وإنشاء الجملة الغنائية تسمع بُعيد الجملة الأساسية فى انسجام وائتلاف معها[٩] فأى شىء فى الموسيقى الشرقية يمنع من تقليد هذا الفن ؟ إذن لا يقول بأن التصوير مستحيل فيها إلا جهول كسول . والرأى للمشتغلين بالغناء والموسيقى عندنا أن يجدّوا فى ترقيتهما معتقدين أن الموسيقى ستبلغ ، أو سوف تبلغ ، مرتبة التصوير العالية ؛ وإذا اتجه نظرهم إلى مظنة وسيلة للترقية فتعرفوها واستخدموها ارتقوا بفنهم درجة ، وطمحت أبصارهم إلى ما فوقها

ونحن ، بحمد الله ، عندنا الناى كالفلوت ، والقانون كالبيانو (وقد استصنع بعضهم بيانو فيه ربع المقام « إيّاه » فصُنع) ، وطبلة كطبلة ، والكمان ، وفى وسع الموسيقيين أن يستعينوا الصناع على تحقيق أغراضهم بتحسين المعازف على الوجه اللائم لما يتفرسون من وسائل الإصلاح ، أو باستحداث ما يلوح من الآلات بدل ادعاء الابتكار والتجديد والتفوق بلا حق

فإذا نحن أردنا أن نخرج موسيقانا من حالها البدائية ، أو طورها الأول الذى ما برحت عارية فيه ، فلا بد من أن نأخذ فى نسج ثوب موشى لها — ثوب التصوير ، وهو غير التوافق بين الألحان وأصوات المغنين

ومتى تيسر التصوير ، وتميزت أصوات المغنين بحدود طبقاتها وألوانها ، وتبينت نسبتها إلى المعازف ، وبدأ التلحين يوحى النفس الحرة من التقليد ، الطليقة من قيد القوالب ، البريئة من السرقة ، أمكن أن يرتقى الغناء المسرحى بمصاحبة الموسيقى ، وأن يقدم أصحاب الفن وشعراء المسرحيات إلى الجمهور أوبريت ثم أوبرا — كوميك ، ثم أوبرا جيدة ليس شك فى أنها تطربه وتعجبه وإن لم يستسغ ماقدم إليه حتى الآن بهذا العنوان من خليط مستغرب ، ومسمى يتبرأ منه اسمه

وليتهم على الأقل يزيدون المعازف إلى ثلاثة أضعاف العدد المعتاد لكل نوع منها فى الجوقة ، ربما يهتدون إلى التصوير ، فإن ذلك يقوى العزيف فيحسّنه فيما نرى تحسيناً متواضعاً أفضل من لا شىء ، لكنه لا يكون من الإصلاح للنشود

ألا إن الجهل والاقتصار فى الاشتغال بهذه الفنون على استرزاقها لا يوصلان إلى شىء مما ينهض بها ؛ ونهضتها ، يوم يتحقق ، إنما يكون ثمرة التطور فى ضوء العلم والثقافة ؛ على

(٦) العربية والفرنسية من اللغات التى تتغير فيها صيغ الكلمات وأواخرها فى التذكير والتأنيث ، والجمع والتثنية ، مثلا تبعاً لوظائفها حين تركيبها فى الكلام

(langues à cas et déclinaisons) ؛ وفى اللغتين الاشتقاق (dérivation) ، وتصريف الأفعال (conjugaison) ، والماضى (prétérit) ، والمضارع (présent et futur) ، والأمر (impératif) وليستا من اللغات التى تجمع فيها أوائل الكلمات ، أو مقاطعها الأولى التى لاتتغير ، جمعاً لا تتعدد فيه كل الآحاد ، فيكون منها مركبات تعبر عن عدة علاقات كاللغة اليابانية (langues agglutinantes) . ويعرف ذلك كل من ألمّ على بعض الباحث فى مقابلة اللغات .

(٧) Contrepoint

(٨) Contretemps

(٩) Contre-chant

أن الأمة تتقدم إذا قام كل جيل من أبنائها بما عليه من حمل أعبائها مسافة على طريق الفلاح ؛ وكلما صح ذوقها ، ورق ودق ، يسمو مثلها الأعلى فى الفن . فعلى محبّي الغناء والموسيقى والتلحين ، المشتغلين بالفن من شبابنا المتعلم ، أن يتعلموا ولو مبادىء ما فى الغرب منه ، وأن يكثروا من الإصغاء إلى تحف الموسيقى والغناء لأعاظم الملحنين والموسيقيين الغربيين أينما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ؛ هذا إلى قراءة شىء من تاريخ الموسيقى وكلام نقادها فى إحدى اللغات الأجنبية ، وقراءة بعض المؤلفات العربية

لكن ذلك وحده لا يُسعف وليس يكفى الآن ، بل العمل المنظم فى هذا الزمن المستنير هو السبيل القصد إلى الغاية ، وفى مصر معاهد أهلية وحكومية للموسيقى يجب عليها أن تلتفت إلى حقيقة حال هذه الفنون عندنا ، وإلى ما يصلح من شأنها ، فذلك خير لها من أن تظل على الأيام صوراً جوفاء خاوية لا تصلح إلا لتمكين الفن السقيم الضعيف والمحافظة عليه ، ويجمل بالوزارة المختصة أن تعنى بهذا الأمر

يجب أن يحمل أرقى هذه المعاهد وأقدرها أعباء النهوض بفنونها ، وأن ينشئ لذلك قسماً مخصوصاً يهتم بها من الجهة الفنية النظرية ، والعلمية الثقافية ؛ وأن يقوم بشئون القسم نخبة من أصحاب الفن المولعين به لا يُعيّنهم لوظائفهم فيه سوى مؤهلاتهم الطبيعية والفنية والثقافية وقدرتهم على ما يُندَبون له نخبة ممن يطمحون إلى المنزلة الرفيعة والفضل فى إحياء فنونهم وإنهاضها فى الشرق برأسهم أحقهم بهذه الرئاسة ، ويجب أن يقتنى القسم مكتبة ينظمها التنظيم العلمى الحديث ، ويجمع فيها المطبوعات الغربية والمؤلفات الشرقية المطبوعة والخطية ؛ ويبحث فى كل مكان عن النصوص الشرقية الدفينة والضائعة ولو مترجمة إلى بعض اللغات الأجنبية كاللاتينية واليونانية والفارسية ، إذ قد يجد فيها ما يلقى ضوءاً على فنون المتقدمين فينير المنهج للمتأخرين ؛ ويشترك فى المجلات الفنية ، ويسترشد عند الحاجة بعض المعاهد الغربية المختصة بهداية السائل إلى جميع الكتب أو الطبعات أو النصوص فى أى موضوع يعينه [١٠] . ويجعل القسم بعض رجاله صلة بين جهده النظرى وجهد معهده فى انتاجه العملى . ويجب أن يقوم المعهد بنوع من الإرشاد والرقابة على سائر المعاهد ، وبإرسال البعثات المختارة من الناجحين فى الفنون الشرقية إلى المعاهد الغربية .

ولا بد ، أخيراً ، من التنبيه إلى آفة الغلو فى بذل الثناء لكل من هب ودب من الملحنين والموسيقيين ، وعلى ضرر نعته بأعظم النعوت ، كأن الناعت يريد إظهار شاعريته هو وبراعته البيانية فلا ينجح بمدحه عن الحقيقة . ذلك يضر حقاً ولو كان بحجة التشجيع أو تمجيد الأمة والوطن حتى لكأن البلاد تنبت النبغاء فى كل فتر من أرضها والعباقرة فى كل شبر ؛ فإن مثل هذا الغلو فى الثناء الكاذب يهزأ منه وليس من الحكمة ولا الوطنية فى شىء ، لأنه يثير فيعمى ويصم فيسبب الوقوف ، بل التأخر بدل التقدم ، وهو لا يصدر عن أهلية للتقدير ، وإنما يكون فى الغالب لأغراض بعيدة عن مصلحة الفن والأمة .

محمد توفيق السلحدار

(١٠) Instituts bibliographiques

وزارة الزراعة

إعـــــلان

تحيط وزارة الزراعة المصالح والجمهور علماً بأنه فقد دفتر تحصيل (استمارة رقم ٣٣ ع . ح) من نمرة ٤٦٨٠٠٦ إلى ٤٦٨٠٢٠ وهى غير مستعملة فكل من عرضت عليه أو عثر بأى طريق كان عليها أن يعلم أنه لا قيمة لها وأنها لاغية وغير معمول بها وليكن معلوما أنها إذا استعملت أنما يكون استعمالها من باب الاختلاس والتزوير مما يجعل مستعملها عرضة للمحاكمة جنائياً ومجازاته بما يقضى به القانون وقد نشر هذا الاعلان لئلا يجهل أحد ماتقدم . ٧٩٦١